المنهج النبوي في التربية والتعليم (2/10)

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ: 28 مايو 2017

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

لماذا اهتم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالعملية التعليمية التعلمية طوال 23 سنة ؟

بُعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في مجتمع شبه جاهلي أمي فلم يكن للقراءة أو الكتابة تلك الأهمية، مجتمع تنخر فيه كل مظاهر الفساد القبلي والروحي والأخلاقي، مجتمع سلبي يعيش في عزلة عن العالم الذي يحيط به، مجتمع ارتقى بالنزاهة والطهارة إلى درجة أن الإنسان العربي كان يقتل بناته خوفًا من الانحراف، مجتمع كان يبجل الكرم إلى درجة أنه كان يسرف في إكرام الضيف حتى وإن لم يكن يملك شيئًا، مجتمع كان يفتخر بقبيلته إلى درجة العصبية إلى درجة أنه يمكن أن تقام حروب لا هدف لها إلا لمجرد أن القبيلة دعته لذلك.

هذا المجتمع لم يكن يحتاج إلى حلول ترقيعية وإعادة ترميم، وإنما كان يحتاج إلى إعادة بناء، إعادة بناء الإنسان العربي من جديد، بناء عقليته، بناء روحه، بناء فكره، بناء جسده، بناء التركيب الديمغرافي للمجتمع، بناء الأخلاق، بناء روح العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، بمعنى أننا نحتاج – كما يقال في المصطلحات الحديثة

– ثورة اجتماعية بيضاء لإعادة بناء المجتمع بكل ما فيه، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بالتعليم.

قال لي كوان يو (1923 – 2015) مؤسسة سنغافورة وأول رئيس وزراء للجمهورية "أنا لم أقم بمعجزة في سنغافورة، أنا فقط قمت بواجبي نحو وطني، فخصصت موارد الدولة للتعليم، وغيرتُ مكانة المعلمين من طبقة بائسة إلى أرقى طبقة في سنغافورة، فالمعلم هو من صنع المعجزة، هو من أنتج جيلاً متواضعًا يحب العلم والأخلاق بعد أن كنا شعبًا يبصق ويشتم بعضه في الشوارع".

وقال أيضًا "الدول تبدأ بالتعليم، وهذا ما بدأت فيه عندما استلمت الحكم في دولة فقيرة جدًا، اهتممت بالاقتصاد أكثر من السياسة، وبالتعليم أكثر من نظام الحكم، فبنيت المدارس، والجامعات، وأرسلت الشباب إلى الخارج للتعلم، ومن ثم الاستفادة من دراساتهم لتطوير الداخل السنغافوري".

بهذه المفاهيم بدأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دعوته التي بُعث بها، فكانت "اقرأ"، ولكن لماذا بدأنا ب"إقرأ" ولم نبدأ بموضوع آخر كالعقيدة مثلاً أو أركان الإسلام وما شابه ذلك ؟

ف"اقرأ" أذنت منذ تلك اللحظة بتغيير في مفاهيم العلوم والمعرفة، فحولتها من أساليب الاستماع والرواية الصوتية لمرحلة أكثر قوة وتأثيرًا وبناء للمعرفة، وهي مرحلة القراءة والكتابة وتدوين المعرفة في قراطيس يمكن أن يقرأها أي إنسان وفي أي لحظة يريد، وعلى مدار التاريخ.

فالأمم التي اعتمدت على الاستماع والروايات المتواترة أقل وعيًا من الأمة التي مارست الكتابة والقراءة، لأن المعرفة تراكمية وتحتاج للاستفادة من تجارب من سبق والبناء عليه، ولكن السمع يُحدثّ به الرواة فإن شاء أضاف إلى ما سمعه قليلاً أو نقص منه قليلاً، وذلك حسب الحاجة، لذلك حرص الصحابة رضوان اللّه عليهم بتدوين القرآن الكريم والأحاديث النبوية وكتابة سيرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فحدث من بعد ذلك بناء تراكمي للمعرفة حتى بلغت الدولة الإسلامية أعلى مراحل الارتقاء المعرفي للبشرية في ذلك الزمان.

ف"اقرأ" إذن؛

1. تمنح الإنسان الثراء والارتقاء الفكري والنضج المعرفي.
2. تساعد الإنسان على الارتقاء بفكره هو حتى لا يكون منقادًا لأحد وكأنه أعمى.
3. تنفي التعصب والتشدد وتنمي القدرة على التوازن والتفكير.
4. تنمي القدرة على الحوار وتنمية مهارات البحث والاستدلال.
5. كل المعرفة والعلم تبدأ من القراءة، وحتى الإيمان والمشاعر الإيجابية وتنفيذ كل المظاهر والشعائر الإسلامية أن لم تبدأ بالمعرفة والقراءة فإنها ستكون صورة فقط من غير مضمون.
6. والقراءة تعتبر القنطرة التي تفصل بين الوعي واللاوعي، فصناعة الإنسان أمر مهم جدًا لبناء أي حضارة ووضع بذور أي نهضة.

ومهما قلنا عن أهمية القراءة واقرأ فلا يمكن أن نختصرها في نقاط صغيرة ومحور واحد من مقال، لذلك بدأنا ب"اقرأ"، ولم نبدأ بغيرها.

ولنا لقاء في الغد،،